

الأشياء. وهذه الموضوعات الإضافية في المدحة الجاهلية أمّدت المدحة العربية فيما بعد بأمداد شعرية كبيرة بديعة. فقد مضى الشعراء في العصور التالية يقدمون لدائحهم بالوقوف على الأطلال ومعاهد الحب أو بالنسيب مصورين فيه حنينهم إلى محبوباتهم وظمأهم إلى التملّي بطلعتهن ونظراتهن الفاتنة وعيونهن الساحرة على شاكلة قول جرير في مطلع مدحة لعبد الملك بن مروان:

وَدَّعْ أُمَامَةَ حَانَ مِنْكَ رَحِيلُ إِنَّ الْوَدَاعَ إِلَى الْحَبِيبِ قَلِيلُ
تلك القلوب صواديًا تيمّنها وأرى الشفاء وما إليه سبيلُ

ويتميز نسيبه في مقدمات مدائحه بالرقّة وصفاء النفس ونقاء الطبع واللطف في الاستعطاف والشكوى، وتلقانا أسراب من ذلك عند العباسيين لا تكاد تحصى. وحتى المقدمة الطللية ما يزالون يحتفظون بها متخذين منها رمزًا لآمالهم الضائعة في كثير من الأحيان. واشتهر أبو نواس بأنه كان ثائرًا على تلك المقدمة داعيًا إلى استبدال الخمر بها. ولم تكن ثورة فنية بل كانت ثورة حضارية. أما بعد ذلك فكان هو نفسه ينظم في الأطلال حين يقدم بها لدائحه. وربما كان من أروع ما نظم فيها - كما مر بنا في غير هذا الموضع - بيته المشهور في مطلع مدحته الميمية للأمين:

يا دارُ ما فعلتُ بك الأيامُ ضامتكُ والأيامُ ليس تُضامُ

وإنه ليأسى للضيم الذي أنزلته الأيام بدار صاحبه. ويتسع الأسى في نفسه لأن أحدًا لا يستطيع الثأر للدار من الأيام. والبيت أشبه بحكمة ضخمة، كل يستطيع أن يلتمس فيها ما سقط منه وانطمست آثاره من ديار وغير ديار وناس وغير ناس وآمال وغير آمال. وكأن شخصية الأطلال في الشعر العربي كانت أقوى من شخصية أبي نواس وثورته عليها. فسخرته لها، وجعلته ينطق بأروع بيت قيل في الأطلال والديار العافية - على الأقل - حتى زمنه.

وقد تفجر ينبوع النسيب في مقدمات المدائح العباسية واستحالت جوانب منه إلى جداول متدفقة من الغزل، نجد ذلك عند بشار ومطيع بن إياس وغيرهما من رواد الشعر العباسي وأيضًا عند من تلاهم من الشعراء. ولن نستطيع أن نعرض